وضعية الباليوليتي الأسفل بالجزائر
دراسة نقدية وآفاق البحث المستقبلية

أ.ة/ وهيبة حرفوش
جامعة الجزائر -02-

الملخص:
رغم غنى دول المغرب بالمواقع الأثرية التي تعود إلى مرحلة (البليو-بليستوسان) والتي تدل على أن منطقة شمال إفريقيا وعلى غرار شرقها وجنوبها، كانت قد عمرتها البشرية مند ما يقارب 2 مليون سنة إلا أن معارفنا التي تخص نمط معيشة الأقوام الأولى ومستواهم الفكري شحيحة حتى لا نقول منعدمة.
الكلمات المفتاحية: الباليوليتي الأسفل؛ سلوكيات الإنسان الحفري؛ عين الحنش؛ الرايح.

Abstracte :
Despite the richness of the Maghreb countries in archaeological sites that go back to the lower palaeolithic(plio- pleistocene),which indicates that the North African region,similar to its East and south,was inhabited by mankind ,nearly2million years ago,but our knowledge concerning the lifestyle of the first people as well as their level of thought is scarce so as not to say that it is non-existent.
Keywords: Paléolithique inférieur; comportements humains fossiles; Ain al-Hanash; El Rayah.

المقدمة:

شهدت أبحاث ما قبل التاريخ في العقود الأخيرة وفي العديد من الدول تقدما كبيرا، في حين بقيت معارفنا التي تخص الحضارات التي تعاقبت على البلدان المغاربية خلال هده الفترة دون المستوى المطلوب، بالرغم من أن الأبحاث الحديثة ورغم قلتها دلت على أن ما قبل التاريخ في المنطقة المغاربية يتناسب مع خصوصياتها. وأن البحث فيها قادر على إعطاء إجابات متوسطية وإفريقية تخص مجالات مختلفة تخص بيئة نمط معيشة الجماعات الأولى التي عمرت المنطقة. ودلك بفضل تكاثف الأبحاث، وتطبيق المنهج الجديد لعلم ما قبل التاريخ الذي يهدف إلى جمع البيانات الميدانية التي تخص النشاط البشرى، وذلك أثناء الحفريات الدقيقة التي تسيرها الفرق المتعددة التخصصات والتي تؤدى لامحالة إلى تعميق المعرفة، والغوص أكثر في حياة مجتمعا ت ما قبل التاريخ.

1- وضعية المعارف الخاصة بالباليوليتي الأسفل:

إن وضعية المعارف الخاصة بالعصر الحجري القديم الأسفل بالجزائر بحكم ما أصبح يُعرف عن هذا العصر في الكثير من مناطق العالم وضعية قابلة للتغيير، وتتطلب إعادة النظر. فالمعلومات التي تضمنتها أمهات الكتب التي كتبت منذ مطلع الثلاثينيات التي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: (Arambourg C.,1970) (Arambourg C.,1949/1953) (Vaufrey R.,1953) (Balout L.,1955) (Biberson P.,1961) (Balout L., Biberson P., Tixier J.,1967) إلى جانب المقالات التي كتبت في العديد من المجلات وأيضا الدوريات (Raffo Drp.,1935) (Reygasse M.,1938) (Ramendi L.,1963) والتي حتى وإن كانت تعكس معارف السنوات الأولى من البحث والتنقيب في مواقع ما قبل التاريخ، إلا أنها تبقى قليلة ومحدودة، والكثير منها تبقى غير مؤكدة، فهي في معظمها عبارة عن جرد للمواقع ودراسة جيولوجية عامة مبسطة (Jodot P.,1955) وصف سطحي للبقايا الأثرية التي تم اكتشافه في المواقع والمحطات الأثرية، والتي لم يتم اكتشافه في إطار الأبحاث الأثرية المنظمة التي تشرك فيها عدة تخصصات؛ بل اكتشفت في معظمها خلال الأبحاث الباليونتلوجية (Arambourg C.,1970) والجيولوجية أو خلال الأشغال العمومية، أو من طرف هواة الآثار.

ولقد نتج عن غياب المتخصصين في الحفريات أي اثناء عملية التنقيب في المواقع الأثرية إلى التقاط عشوائي للمخلفات الأثرية دون تخطيط أو توثيق، وعدم استثمار المعطيات الميدانية لإبراز القدرة المعرفية للجامعات البشرية الأولي. ولما كان الباحثون الأوائل في معظمهم فرنسيون، فلقد عملوا في بداية أبحاثهم في البلدان المغاربية على جمع كل ما يشبه ما تم التقاطه من المواقع الأوروبية، ومناطق أخرى من العالم، والتي لم تكن تهتم إلا بالأدوات المصنعة، وأهملت الشظايا التي دلت الأبحاث فيما بعد على أنها كاشفة لتقنية وطريقة الصنع المتبعة في إنجاز الأدوات. كما درست الأدوات بنفس المنهجية، وبنفس الرؤى التي درست بها تلك التي التقطت من المواقع الأوروبية وخاصه الفرنسية منها، مما أدى إلى وضع سجل حضاري مطابق للسجل الحضاري الأوروبي، وأعطيت نفس التقسيمات الحضارية ونفس التسميات، وضربت بذلك عرض الحائط كل مميزات وخصوصيات المواقع المغاربية بصفة عامة، والجزائرية بصفة خاصة. فالتنقيبات والأبحاث الحديثة التي أقيمت خلال التسعينيات في موقعي عين الحنش والخربة بالشرق الجزائري (Sahnouni M 1993) (Sahnouni M et et al .1996) ، أكدت أن خصائص الباليوليتي الأسفل في الجزائر تشبه كثيرا خصائص الباليوليتي الأسفل في إفريقيا الشرقية من الناحية الصناعية وحتى الكرونولوجية. كما أكدت أن البشريات الأولى كانت قد استقرت في القسم الشمالي للقارة الإفريقية في حدود 1.8 مليون سنة.

وتزداد الإشكالية حدة بالنظر إلى نتائج الأعمال والأبحاث التي أقيمت في مختلف المواقع والمحطات التي تم اكتشافه أو التنقيب فيها بعد الستينيات، أي بعد التطور العلمي والتقني الكبير الذي أحرزه علم قبل التاريخ والتغيرات الكثيرة التي شهدها منهجه. فبالرغم من أهمية الكثير من هذه المواقع والمحطات المنتشرة عبر العديد من المناطق الجزائرية، والتي لم تعمل على تأكيد أقدمية العصر الحجري القديم الأسفل في الجزائر فحسب، بل زادت أيضا من أهمية اول وأقدم المراحل التي مرت بها البشرية، غير أن التنقيبات التي أجريت فيها لم تعمل على تحديث معارفنا التي تخص المستوى الفكري للإنسان الحفري. كما انها لم تعمل على إثرائها، فلقد بقية مجمل الأبحاث عقيمة من حيث المعلومات الخاصة بعلاقة الإنسان

القديم بمحيطه، أي التي تخص سلوكياته وايضا تصرفاته الغير مادية. وهي معلومات أصبح الوصول إليها ممكنا. كما أصبح الاطلاع على جوانب أخرى من حياة المجتمعات البشرية الأولى واسترجاع بعض الوقائع أمرا ممكنا، ويتم بالاعتماد على المعطيات الإثنوغرافية، وهي مقاربة جديدة تدخل ضمن سياق التطور الذي أحرزه علم ما قبل التاريخ. حيث تقوم أكثر التأويلات الطبيعية والأكثر علمية بالظاهر من خلال المقارنة مع واقع المجتمعات التقليدية التي لازالت تعيش في وقتنا الحاضر في العديد من مناطق العالم، والتى يشبه نمطها المعيشي نمط معيشة جماعات ما قبل التاريخ. فيذكر هذا الغرض بغرض عند الاسكيمو، وتقرب هذه العادة من تلك العادة عند الهنود أو عند البشمان أو أقوام أخرى، وغيرها من الإسقاطات التي تعطي القوام لإنسان ما قبل التاريخ.

كما لم تعمل الأبحاث هذه على تطوير معلوماتنا الخاصة بالواقع الجغرافي الذي عاش فيه الإنسان الباليوليتي ولا على مدى تأقلمه، لا لشيء إلا لأن هذه المواقع والمحطات الأثرية لم تحض بالأبحاث المنظمة والمتعددة التخصصات. ولم تطبق فيها أسس التنقيب الحديثة، والتي أصبحت تهدف إلى دراسة الإنسان القديم ضمن إطاره البيئي. بل نقبت بالطرق القديمة التي تهدف إلى دراسة إنسان ما قبل التاريخ، ودراسة بيئته كل على حدا. ولقد ترتب عن الإستمرار في تطبيق الطرق القديمة في البحث والكشف عن مخلفات وبيئة جماعات ما قبل التاريخ التي سكنت في الجزائر منذ ما يقارب 2مليون سنة بقاء عدة تساؤلات واستفسارات عالقة تخص علاقة الإنسان الباليوليتي الأسفل بمحيطه، ونشاطاته، وكيفية إنجازها وتحديد سلوكياته.

وعموما فلقد سمح لنا تفحصنا للكثير من هذه الكتب والمقالات التي كتبت من طرف رواد ما قبل التاريخ خلال الفترة الاستعمارية وحتى بعدها، وكذلك الأبحاث والمقالات المتخصصة والخاصة بالموقع والمحطات التي نقبت بعد هذه الفترة، بالإضافة إلى النتائج التي توصلت إليها الدراسات المخبرية التي أقيمت على بعض البقايا الأثرية، وخاصة الصناعات الحجرية القديمة منها والحديثة إلى تحديد بعض النقائص التي بلورناها ضمن نقطتان رئيسيتان وهما:

- نقص وتفاوت في انتشار مواقع ومحطات الباليوليتي الأسفل عبر المناطق الثلاثة للوطن الساحلية، الداخلية والصحراوية.
- ندرة المعلومات التي تخص النمط المعيشي عند الإنسان في العصر القديم.

بالسنة للنقطة الأولى فلقد لاحظ العلماء أن المناطق الساحلية وبالرغم من اتساعها وتوفرها على الظروف الملائمة للعيش، إلا أنها تعاني من ندرة آثار ومخلفات الباليوليتي الأسفل. ويبقى سبب هذه الندرة غامضا. فالبعض من الباحثين يربط الندرة هذه بالعوامل الطبيعية (المد والجزر) والحركات التكتونية التي أدت إلى اندثار أو طمر الطبقات الجيولوجية وما تتضمنه من شواهد أثرية. في حين يرجعها آخرون الي قلة الخرجات الاستكشافية، ونقص الأبحاث المتخصصة والمنظمة التي طالت هذه الجهة من الوطن. على عكسها المناطق الداخلية فإن مشكل الندرة غير مطروح، بل أن المواقع الجزائرية الهامة والتي تنتمي إلى الباليوليتي الأسفل في معظمها متمركزة في الهضاب والتلال الشرقية وأيضا الغربية. وأما المناطق الصحراوية، ومقارنة بالمناطق الأخرى فهي وبصفه عامة تعد الأغنى من حيث توفرها على المجموعات الصناعية التي تنتمي إلى حضارتي العصر الحجري القديم الأسفل أي الألدوانية والأشولية. ورغم ذلك تبقى النسبة قليلة مقارنة باتساع الرقعة الجغرافية الصحراوية خاصة وأن الدراسات الجيولوجية والجيومرفولوجية أكدت أن الظروف المناخية وكذلك الطبيعية التي كانت تسود الصحراء الجزائرية خلال عصور ما قبل التاريخ كانت جد ملائمة لاستقرار الإنسان. وللإشارة فإن التفاوت العددي في المحطات يبقى مطروحا أيضا بالنسبة للمناطق الصحراوية؛ فالعدد الكبير للمحطات الأثرية الذي تزخر به المناطق الواقعة في المنطقة الشمالية الغربية من الصحراء يقابله نقص كبير في الصحراء المنخفضة وكذلك الوسطى.

أما النقطة الثانية والتي تخص ندرة وضعف المعلومات التي تخص نمط حياة الإنسان القديم، فهي وبحكم ما أصبح يعرف في السنوات الأخيرة عن بداية الأزمنة الإنسانية في الكثير من دول العالم تعتبر جد متدنية، إن لم نقل منعدمة. فهي حتى وإن كانت تعكس معارف السنوات الأولى من البحث، يبقى بعضها سطحي

وغير مؤكد، فهي لا تتعدى تحديد ووصف لبعض البقايا العظمية الحيوانية وتصنيف للصناعات الحجرية التي تم انتقاؤها من المواقع والمحطات الأثرية بطرق عشوائية بعيدة كل البعد عن الطرق العلمية. ولقد نتج عن ذلك بقاء الكثير من التساؤلات التي تخص النشاط الذهني والإنتاج الفكري دون إجابات، كما بقية الاستفسارات التي تخص حياتهم الاجتماعية والروحية وأيضا علاقتهم بمحيطهم الطبيعي عالقة، فأفضل الحفريات القديمة قد تمت للحصول قبل كل شيء على تسلسل تاريخي للأدوات وللهياكل العظمية الحيوانية بشكل أنها جردت في العديد من المرات من الملاحظات الدقيقة التي تسمح بتأويل موقعها الأصلي ومعاينة مجالات استخدامها. ومازدا الطينة بلة هو نقص التوثيق وأيضا الصور والرسومات، فمعظم تقارير الحفريات القديمة لا تتضمن إلا انطباعات المنقب التي كثيرا ما تكون متسرعة ومبهمة.

2- مشاكل البحث وأسباب تدنى المعلومات الخاصة بحضارتي الباليوليتي الأسفل:

إن غنى الدول المغاربية وعلى رأسها الجزائربالمواقع الأثرية، وكثرة الأبحاث التي أجريت فيها في الماضي، ورغم صعوبة الاعتراف بذلك لم تشفع لها أن تكون من الدول الرائدة في إبراز الخصائص والمميزات البشرية للجماعات التي عاشت خلال الباليوليتي الأسفل، ويرجع ذلك لعدة أسباب أهمها:

أ- طرائق اكتشاف الموقع الأثري: إن معظم مواقع ومحطات الباليوليتي إن لم نقل جُلها تم اكتشافه إما خلال الأشغال العمومية، أو في إطار الأبحاث الجيولوجية و الباليونتلوجية .ولقد كان لهذا النوع من الاكتشاف تأثير على البحث والتنقيب التي كانت في غالب الأحيان متخصصة إما جيولوجية أو باليونتلوجية محضة غابت فيها الاختصاصات الأخرى، مما أدى إلى إهمال الكثير من العناصر والبيانات الميدانية الهامة التي توحى بالأنشطة وكذلك السلوكيات البشرية. ولقد صاحب هذا الغياب انعدام التوثيق العلمي للظواهر التي يمكن أن يتضمنها الموقع الأثري، وإلى تحطيم الكثير من المعطيات الميدانية التي تساهم في دراسة المحيط الطبيعي والاجتماعي لإنسان ما قبل التاريخ. فالموقع الأثري وما يحتويه من آثار كيفما كانت نوعيتها لا تدل على تمركز إنسان ما قبل التاريخ

وإقامته في ذلك المكان فحسب، بل هو بمثابة المرآة العاكسة للعديد من الممارسات والأنشطة التي يمارسها؛ والتي تبرز تصرفاته وأيضا مختلف سلوكياته التي تدلنا بدورها عل درجة ذكائه.

ب- وجود مركبات صناعية كثيرة مخزنة: من المشاكل التي تولدت عن الأبحاث الغير الأثرية والتي لم تشترك فيها مختلف التخصصات، وجود كميات كبيرة من الأدوات مخزنة في العديد من المتاحف ومراكز البحث الوطنية والدولية ولا نعرف عنها إلا أماكن التقاطها أو أسماء ملتقطيها. وما يميز هذه المركبات هو إحتوائها في أغلبها على القطع المصنعة فقط، كالحصى بأنواعها الشوبر(Chopper) الشوبينغ تول(Chopping tool) والكروي والشبه الكروي (polydères) أو الفؤوس اليدوية (Bifaces) والفؤوس الصغيرة (Hachereaux) دون الشظايا (Les éclats)وهذا راجع لاهتمام الباحثين الأوائل بالقطع المصنعة وإهمالهم للشظايا لعدم أهميتها في نظرهم آنذاك.

وقد أكدت الأبحاث الحديثة أهمية الشظايا في تتبع تقنية الصنع، وبالتالي تحديد تصرفات الحرفي. كما أن الباحثين الأوائل الذين نقبوا في المواقع المغاربية، عملوا على انتقاء القطع التي تشبه تلك التي تم التقاطها من المواقع الأوروبية وخاصة الفرنسية منها. ولقد نتج عن ذلك عدم وجود تساوي بين الأدوات المصنعة والشظايا، الأمر الذي أعاق عملية إعادة تشكيل الأدوات التي تعد اليوم من أهم الطرق التي تسمح بالتعرف على علاقة الإنسان بعمله، والتي تحكمها شبكة من القواعد التكميلية (التقنية والمادية) التي تخص تقنيات التشذيب والتصنيع عند الإنسان الحفري. كما بقيت العديد من المجموعات الصناعية من دون دراسة تنميطيه، وحتى تلك التي درست. فإن دراستها كانت سطحية لم تتعدى الوصف الخارجي للقطع، وتحديد مقاساتها والتعرف على المادة الأولية التي صنعت منها، لتدخل فيما بعد ضمن الأنواع التي حددت لها قوائم تصنيفيه وفقا للسجل الأوروبي المعروف والمحدد مسبقا. كما أطلقت عليها نفس التسميات، وحددت نفس المراحل التطورية للصناعات الألدوانية وأيضا الأشولية، وأعطيت لكل مرحلة نفس الخصائص الأوربية دون الإهتمام بالمميزات والخصائص التي تتميز بها الصناعات المغاربية.

-حالة الأدوات: لم تكن دراسة الأدوات سطحيه فحسب، بل أهمل دارسوها مظهرها الخارجي (Etat des outils) بالرغم من أهمية دراسته في تحديد مكانها الأصلي، (كأن تكون في مكانها الاصلي (in situ) أو منقولة) وبالتالي الانتماء الحضاري للبعض منها، وخاصة تلك التي وجدت مختلطة مع الأدوات الأكثر تطورا. واعتمدوا في تحديدهم للمراحل التطويرية لحضارتي الباليوليتي الأسفل الألدوانية والأشولية، على كل الأدوات كيفما كانت حالتها سليمة أو متآكلة، ونفس الشيء فعلوه مع البقايا العظمية الحيوانية.

-نقص البقايا العظمية في مواقع ومحطات الباليوليتي الأسفل وضعف دراستها: يُعد نقص عظام الحيوانات من أهم المشاكل التي تعاني منه أبحاث ودراسات العصر الحجري القديم الأسفل. فأغلبية مواقع ومحطات هذا العصر وحسب الدراسات التي أقيمت فيها لا تتوفر على هذا النوع من المخلفات. وحتى تلك التي اكتشفت فهي في الكثير من المرات تكون صعبة التحديد، فهي عبارة عن أسنان منفردة أو قطع من القرون او الشظايا العظمية (les esquilles)، ولقد أدت دراستها ببعض العلماء إلى المبالغة والإفراط في تحديد الأنواع الحيوانية. وحتى العظام الحيوانية التي عُثر عليها في بعض المواقع لم تعط معلومات تخص نمط عيش الإنسان القديم، لا لشيء إلا لأنها لم تستغل جيدا، ولم تستنطق في هذا المجال. بل معظم الدراسات كانت منصبة على الجانب الباليونتلوجي، حتى أنها لم تتعدى تصنيف الأنواع وتتبع تطورها (الفيلوجينيا)، ولقد أدى ذلك إلى بقاء مسائل عالقة تخص سلوكيات إنسان ما قبل التاريخ، وكيفية تعامله مع الفريسة (السلخ والتقطيع).

-غياب الطبقية أو عدم وضوحها: بقي مشكل الستراتغرافية ولوقت طويل يشكل هاجس بالنسبة لدراسة الباليوليتي الأسفل، نظرا لغيابها في معظم المحطات، وعدم وضوحها في الكثير من المواقع. فالكثير من المواقع وخاصة ذات التشكيلات الغرينية تعد مأوى أو بالأحرى مخزن للأدوات الحجرية. نفس الشيء بالنسبة لتلك التي لها علاقة بالمياه الأرتوازية (تغنيفين، كرار وابوكير) أو تداخلها في مواقع أخرى خاصة الساحلية منها. وحتى المواقع التي إحتوت على التكوينات الرسوبية، فإنها لم تول الاهتمام اللازم من قبل الباحثين، وهذا بالرغم من أهمية الترسيبات في التعرف على المناخ القديم،

وأيضا في تحديد العوامل التي أدت الي غياب الشواهد النباتية والحيوانية من المواقع الأثرية. ولقد اكتفى دارسوها بوصف الطبقات الجيولوجية للموقع وترقيمها كما قام بعضهم الآخر بتحديد الستراتغرافية المحلية، ولكن أكثرهم اهتموا بتحديد ووصف الطبقات الأثرية فقط.

-عدم الاهتمام بالمحطات السطحية والأدوات المنعزلة: لما كانت نظرة الباحثين الأوائل إلى المحطات السطحية على أن دورها ثانوي، بسبب غياب عنصري الطبقية والبقايا العظمية فيها، فإن الإهتمام بها كان قليل، وقد يكون لهذا الإهمال في نظري الشخصي دور في إعتبار، وكما سلف ذ كره، المناطق الساحلية والصحراء المنخفضة فقيرة من حيث المواقع الأثرية.

-هشاشة وضعف التواريخ: إن الكثير من التواريخ التي أعطيت للمواقع والمحطات الأثرية غير مؤكدة، والسبب في ذلك هو اعتماد العلماء والباحثين كثيرا على الإطار الكرونولوجية الخاص بأوروبا، والذي له علاقة بالجليديات، يعني بمناخ غير المناخ الذي كان يسود بلدان شمال افريقيا. ولقد زاد انعدام وجود الصخور البركانية في المنطقة والتي تسمح بتطبيق الطرق المشعة، وايضا عدم صلاحية تطبيق طريقة اليورانيوم على المخلفات التي تعود إلى ما قبل نهاية الباليوليتي الأسفل من تعقيد مشكل التاريخ. الذي يعد من اعقد المشاكل التي تعاني منه دراسة العصر الحجري القديم الأسفل.

3-الاقتراحات:

ايمانا منا برؤية هدا المجال المعرفي يزدهر في البلدان المغاربية ككل، بسبب تشابهها في العديد من الخصائص والمميزات، قمنا بإدراج بعض الاقتراحات، والرؤى الجديدة التي نراها ووفقا لما هو معمول به في بعض الدول المتطورة ناجعة، والتي بدأ بعض الباحثين الجزائريين العمل بها في بعض المواقع.

وبالنسبة للنقطة الأولى والخاصة بالانتشار القليل لمواقع الباليوليتي الأسفل، فإنه وحسب رأينا الشخصي راجع إلى قلة الأبحاث العلمية المتخصصة. لذا فإننا نقترح الإكثار من الخرجات الاستكشافية (Les prospections)، من أجل البحث عن مواقع ومحطات هذا العصر،والاستعانة بالوسائل العلمية المتطورة كالصور الجوية والأقمار الصناعية.

أما بخصوص النقطة الثانية، والخاصة بنوعية المعلومات: فإننا نقترح تغيير منهج البحث، واتباع طرائق البحث والتنقيب الجديدة. فإذا كان هدف الباحثين في الماضي هو ، التعرف على الحضارات الإنسانية، بتحديد مختلف صناعاتها وتاريخها بالإضافة إلى تحديد البيئة التي عاش فيها، والمناخ الذي كان يسودها وكذاك الأنواع الحيوانية التي تعايش معها .فإن هدفهم اليوم قد تعدى ذلك .فلقد أصبحت الأبحاث الخاصة بعصور ما قبل التاريخ في السنوات الاخيرة أكثر شمولية وهذا يعنى أنها لم تعد متخصصة كما كانت من قبل كما أنها لم تعد تفصل بين الإنسان و بيئته؛ بل أصبحت وكما سبق وأن أشرنا تهدف الي دراسة الإنسان ضمن بيئته .مما يستدعى تضافر جهود الباحثين في مختلف التخصصات أثناء الحفريات أي في الميدان لأجل جمع كل البيانات التي توحى بوجود أنشطة بشرية ومميزات بيئية. وأيضا في المخابر حيث تجري الدراسات والتحاليل.

ولقد أعطى تطبيق هدا المنهج في موقع عين الحنش الشهير إلى نتائج مزدهرة وجد مرضية تخص معطيات كرونولوجية جديدة خاصة بإعمار الجزائر خلال العصور الحجرية. بالإضافة إلى تحديد أنواع جديدة من الحيوانات القديمة، وأيضا البيئة القديمة ومدى تكيف الجمعات البشرية معها. بالإضافة إلى تحديد بعض التصرفات والسلوكيات والتي تما استنباطها من التوزيع المكاني وتقنية صناعة الأدوات بالإضافة إلى طريقة تقطيع الفريسة والكميات المستهلكة التي توصل الباحثون الي تقديرها من خلال تفحصهم الدقيق للمخلفات الاثرية باستخدام الوسائل التقنية المتطورة.

1. إعادة تشكيل البيئة القديمة:

إن اعادة تشكيل البيئة القديمة تتم بالاعتماد على ما اصطلح على تسميته (Ecofacts)، والذي يعني الوسط الطبيعي والنباتي والحيواني.

أ-دراسة التضاريس التي تسمح بتوضيح وتحديد الجغرافية القديمة للمنطقة التي يوجد فيها الموقع إلى جانب تحديد الستراتغرافي المحلية من جهة، وتطبيق التاريخ النسبي بالاعتماد على المصاطب النهرية من جهة أخرى.

ب-دراسة الطبقات الستراتغرافية، فهي لا تعبر عن التغيرات المناخية والتحولات الثانوية ضمن المستوى الواحد فحسب؛ بل تبين حتى التقلبات المناخية التي حدثت في العصر المناخي الواحد.

ج-دراسة المضمون الرسوبي من أجل معرفه طبيعة وأصل الترسبات وبالتالي تحديد طبيعة البيئة والمناخ وأنواع النباتات التي كانت تسود المنطقة في ذلك العصر. وتفيد هذه الدراسة أيضا في تحديد الأراضي القديمة (paléosol) التي تساعد عالم ما قبل التاريخ في معرفه البيئة القديمة، كما أنها تساعده على اكتشاف نشاطات الإنسان القديم من بناء المساكن والصناعات. وليس هذا فحسب؛ بل تفيد دراسة المضمون الرسوبي أيضا في تحديد الظواهر والاضطرابات التي تكون قد حدثت في الطبقات الأرضية المشكلة للموقع الاثري، واثرت على المخلفات الاثرية وهذه الدراسة تتطلب وسائل وتخصصات ما فتأت تتطور سنة بعد أخرى.

د-الوسط النباتي: إن تحديد وتصنيف الأنواع النباتية التي كانت تشكل الغطاء النباتي للمنطقة المدروسة والتي تعكس بدورها المناخ الدى كان يسودها يتطلب دراسة اللقاح (حبات الطلع) وبقايا الأخشاب. بالرغم من إن مجال تطبيق الباليولوجيا (دراسة النباتات القديمة) في مواقع الباليوليتي الأسفل ضيق؛ نظرا لقلة المعطيات إلا أن التدقيق اثناء التنقيب والحرص على إتباع التقنيات الدقيقة اثناء أخذ العينات التي توجد ضمن الترسيبات واثناء تحليلها يؤدي إلى نتيجة إيجابية.

ه-الوسط الحيواني: إن تحديد الأنواع الحيوانية القديمة من خلال استنطاق البقايا العظمية الحيوانية، أمر ضروري وهام. ولقد أدرك المختصون أن البقايا العظمية الحيوانية بكل اشكالها وأحجامها تحمل دلائل طبيعية تخص المحيط البيئي القديم. وتفحصها الدقيق بواسطة الأجهزة التقنية المتطورة يعطى معطيات ثقافية هامة تخص علاقة الإنسان بالحيوان، والتي تدخل في إطار العادات الغذائية.

2. دراسة سلوك الإنسان وتحديد نشاطاته:

هي خطوة جديدة من بين الخطوات التي تضمنها التطور الجديد الدى أحرزه منهج علم ما قبل التاريخ. وهي تهدف إلى معرفة تصرفات الإنسان وسلوكياته. ويستوجب إعدادها وتطبيقها إقامة دراسة تمهيدية اختبارية لأجل تحديد وتقييم مدى صلاحية الموقع الأثري لدراسة سلوك الإنسان، وتحديد نشاطاته. وهي عبارة عن دراسة جيوأركيولوجية وطافونومية، تسمح بالتحقق من أن الموقع الأثري لم يتعرض إلى أي اضطرابات كيف ما كان نوعها. وعلى ضوء النتائج التي تحققها الدراسة التمهيدية هذه تحدد المرحلة الموالية. فإذا دلت الدراسة التمهيدية على وجود آثار اضطرابات طبيعية من سيول أو عناصر فيزيائية وكيميائية أو بيولوجية (كواسر وقوارض) مست الموقع، فإن دراسة سلوك الإنسان القديم لا تكون مجدية، ولا يمكن أن تعطي نتائج صحيحة. أما إذا كانت النتائج عكس دلك بمعنى أن الموقع لم يتعرض الي أي اضطرابات كيفما كان نوعها وأن كل الآثار سليمة وموجودة في مكانها الأصلي (in situ)، فإن تحديد نشاطات الإنسان القديم والتعرف على سلوكه، أمر ممكن ويتم دلك بإتباع الخطوات التالية:

أ- دراسة الأدوات:

لم يعد الباحثون يكتفون بالمعطيات التي تعطيها الدراسة التنميطية للأدوات في تحديد الإطار الكرونولوجية الخاص بالحضارات، وتقنين الأدوات بترتيب خصائصها الشكلية فقط، بل أصبح استنطاق الأدوات يفيد أيضا في معرفه سلوكيات الإنسان ومختلف التصرفات .فالأداة وكما قال عنها الباحث لبو(Lepot) تعتبر ناقل للطاقة والمعلومات بين الإنسان والمادة لتلبية حاجة الأولى بتحويل الثانية (lepot M.,1993) وعلى هدا الأساس فان الأداة بمثابة هيكل تقنى يفرضه التشكيل علي حجم الحصى باتباع مجموعة

من العناصر التقنية و الأرغونومية(ergonomique) فهده الأخيرة تفيد في ابراز العلاقة بين الإنسان والوسائل التي يستخدمها. ولأجل استيعاب هدا النهج يلجأ المتخصصون إلى مفهوم السلسلة العملية (la chaine opératoire)، والتي يقوم مبدؤها على إعادة تصور وتحديد مجموع العناصر التي تؤثر على القطعة الحجرية منذ البدء في تشكيلها إلى حين تركها. وهي عناصر تضم مراحل اختيار واقتناء المادة الأولية ومعالجتها وطريقة الصنع والاستخدام، مستندين في دلك على المعطيات الإثنوغرافية. وعموما فان اختيار الإنسان الحفري للمادة الأولية التي يصنع منها أدواته يكون إما لصلابتها أو لمجرد توفرها في محيطه. والبحث عن سبب اختيار المادة يساعد الباحثين على التعرف على البعض من تصرفات الإنسان، كتنقله مثلا للبحث عنها، وجلبها من مكان بعيد عن ورشة التشذيب Atelier (de taille) او عن مسكنه. كما يسمح بالتعرف على الكيفية التي جلبت بها، والتي تكون اما على شكل قطع خام ليقوم بصناعة الأدوات التي يحتاجها في داخل مسكنه، أو يقوم بتشكيل أدواته وأسلحته وتشذيبها في مكان تواجد المادة الأولية اي المنجم، ليأتي بها فيما بعد جاهزة إلى مقر اقامته.

وأما عن طريقة الصنع فيتم التعرف على مختلف تقنياتها بتطبيق بعض الطرق من بينها: إعادة التركيب التي تفيد في تحديد الطريقة المتبعة من قبل الإنسان القديم والتي تعرف بالتشذيب التجريبي (la taille expérimentale) التي تساعدعلى معرفة تقنية الصنع المتبعة، ومدى تفاعل المادة الأولية وكدا الوقت الذي استغرقه الصانع في انجاز الأدوات. والثى تعكس بدورها مهارة الإنسان الحفري، وتقدير درجة ذكائه التي تظهر من خلال ابتكاره لتقنيات الصنع التي تسمح بعدم تبذير المادة الأولية، خاصة إذا كانت غير متوفرة في محيطه وأيضا الوقت. فالأدوات الحجرية في مجملها تعكس التركيبة التكنو-نمطية والمورفولوجيا وطرق التشذيب التي تتماشى والمقاصد الوظيفية.

وللإشارة فان هذه الطريقة تفيد كثيرا في دراسة المجموعات الصناعية التي التقطت من المواقع الجزائرية خلال الخمسينيات وحتى الستينيات، أين كان المنقبون الأوائل وكما سبق وأن أشرنا لا يهتمون بالشظايا ولا يلتقطون الا الأدوات المصنعة والمعروفة مسبقا.

وأما عن مجال استخدام الأدوات فيتم معرفته بالاعتماد على الخصائص التكنو-أرغونومية (techno- ergonomique) ترجع الي مفهوم الوحدة التكنو-وظيفية، والتي يتم التعرف عليها بواسطة علم الترسيولوجيا (traceologie) وهدا الأخير يقوم على مبدئ فحص آثار الاستعمال المتمثلة في الندابات التي توجد على حافة أو مساحة الأداة، والتي تتكون وحسب ما هو معروف عند بعض الأقوام التقليدية إما نتيجة تقطيع اللحوم أو قص الأشجار وحفر التربة أو تكسير العظام وكشط الجلود.

ب- تحديد الفضاء السكني وإعادة ترتيبه:

إن المعلومات التي يتم استنباطها من دراسة الأدوات الحجرية والبقايا العظمية والتي تخص نشاطات وسلوكيات إنسان ما قبل التاريخ يمكنها أن تدعم وتؤكد بدراسة التوزيع الفضائي للبقايا الأثرية. خاصة إذا ما سلمنا أن تراكم واختلاط البقايا الأثرية في داخل المواقع الأثرية ليست عفوية، وتوزيعها لم يكن بالصدفة؛ بل هي وفي الكثير من الأحيان ناتجة عن مختلف الأنشطة والأعمال اليومية التي كانت تقوم بها الجماعات البشرية في العصور القديمة. وحسب رأي وما يراه الباحث الفرنسي أندري لوروا-قوران (A. leroigourhan) فإن الطريقة الصحيحة لتحديد المساحة السكنية يتم بتوفر الشواهد والبنية. الشواهد هي التسمية التي تطلق على مخلفات الإنسان كيفما كن نوعها، أدوات صناعية، بقايا عظيمة أو مواقد وغيرها من مستلزمات الحياة. وأما البنية فالمقصود بها النسيج الهيكلي لتجمع مختلف الشواهد التي تشكل تجمع معبر وذو مغزى .(le roi-gourhan A., 1964) ومثال على ذلك وجود الموقد في وسط المسكن (مغارة كهف او ملجئ صخري) فهذا المشهد يدل على معرفة ساكنيه للنار واستئناسها. أما وجود بقايا التشذيب (أي النشول التي تنزع من النواة أو من القطعة الحجرية التي يراد تصنيعها) في نفس المكان الذي توجد فيه الأدوات الجاهزة اي الكاملة التصنيع فهو

يدل على أن المكان يمثل ورشة تشذيب. أما المشهد الذي تظهر من خلاله العظام الحيوانية مختلطة مع الأدوات القاطعة، فهو يدل على أن المكان كان مخصص لتقطيع اللحوم.

ويشترط في دراسة التوزيع الفضائي للأثار في داخل الموقع الأثري والدي يهدف من خلاله تفسير بعض الظواهر، والوصول من خلالها إلى تحديد البعض من نشاطات إنسان ما قبل التاريخ، إلى اتباع منهج التنقيب الأفقي، ويستلزم أيضا الأخذ بعين الاعتبار طبوغرافية المكان التي تتحكم في انتشار الآثار.

ولقد بدأت ثمار تطبيق المنهج الجديد لعلم ما قبل التاريخ، بإتباع الخطوات السالفة الذكر في موقعي عين الحنش والرايح تبرز بوضوح، بحيث أصبحنا اليوم نتوفر على بيانات ميدانية تخص البيئة القديمة وأخرى تخص سلوكيات الإنسان.

كما أدت الخرجات الاستكشافية التي كانت تقوم بها فرق البحث إلى اتساع الرقعة الجغرافية الخاصة بالموقعين باكتشاف مواقع ومحطات جديدة في ضواحي مدينتي العلمة ومستغانم. ولأن علم ما قبل التاريخ ليس بعلم دقيق بل تخضع معطياته للاكتشافات الجديدة، فإن معارفنا الحالية مرجحة لأن تتغير. وفي انتظار الاكتشافات المستقبلية نسرد فيما يلي بعض المعطيات الجديدة التي تخص الموقعين:

1-موقع عين الحنش والخربة:

يقع هذان الموقعان في الهضاب العليا الشرقية للجزائر، ولقد تم اكتشاف الأول أي عين الحنش في سنة 1949من طرف الباحث الفرنسي أرمبورغ (Arambourg 1970,1979)، وهو يشتهر باحتوائه على أقدم الصناعات الحجرية المؤرخة في حدود 1.8مليون سنة، والتي تشبه تلك التي اكتشفت في موقعي الدوفاى بتنزانيا وكوبي فورا بكينيا. أما موقع الخربة فلقد تم اكتشافه من قبل الأستاذ سحنوني وفرقته المتعددة التخصصات خلال الأبحاث والرحلات الاستكشافية التي يقومون بها في المنطقة منذ 1992، والتي لازالت مستمرة لحد اليوم. كما كشفت الحفريات التي أجريت في الموقع على معطيات جديدة سمحت بتأخير تأريخ الموقع وإرجاعه إلى نهاية

البليوسان وبداية البليستوسان الأسفل (بليو- بلايستوسان) أي في حدود1.78مليون سنة (sahnouni M.et al.,1996).(sahnouni M.,2004).وتم اكتشاف كمية هائلة من الأدوات الحجرية(artefacts) lithiques وبقايا عظام لأنواع من الثدييات تضمنت فيلة ،أحصنة وأبقار صغيرة وأخرى كبيرة ، زرافات وأنواع أخرى من أكلات اللحوم، بالإضافة إلى أنواع جديدة لم تكن معروفة من قبل في مواقع شمال إفريقيا. ولقد قام بدراسة بقايا عظام الحيوانات هذا الباحث الجزائري حجويس الذي توصل إلى تحديد بالإضافة إلى: *Equus (numidicus)* الذي كان قد أشار إلى وجوده الباحث بومل (Pomel) سنة 1897 في موقع عين بوشريط الواقع في الضفة المقابلة. أنواع جديدة من الأبقار وهي *(Pelorovis howelli)* et *(* kolpochoerus *heseloni*) (Hadjouis et Sahnouni 2006) . وهي أنوع قريبة من تلك التي اكتشفت في بعض المواقع الإفريقية أمو بأثيوبيا، وكوبي فوار، شرق توركان كينيا وأيضا ((Bed 1 لموقع ألدوفاي). أما دراسة ستراتيغرافية الموقع فلقد نتج عنها إلى جانب تحديد أرضيات قديمة تمحيص دقيق للتكوينات، التي اتضح من خلاله أنها توضعات دورية ونهرية. ولقد سمحت هذه المعطيات للباحثين من إعادة تشكيل المحيط البيئي الذي كان عبارة عن سافانا، ساده مناخ جاف قريب من ذلك الذي ساد منطقة الهقار (الصحراء الوسطى) وشرق تركانا (كينيا) والافار(اثيوبيا).

أما عن تحديد نشاطات الإنسان القديم فلقد سمحت دراسة التوزيع الفضائي للآثار المتنوعة ما بين الحجرية والعظمية إلى التعرف على البعض منها وهي تتمثل في الصيد وتقطيع اللحوم. وبخصوص الجانب الصناعي فلقد اكتشفت إلى جانب المركبات الأولى المعروفة في موقع عين الحنش أنواع جديدة، شبيهة بالصناعات التي التقطت من موقع ألدوفاي(Bed 1 et 2) ، وهي تتمثل في حصى مشذب (نوع وحيد الاتجاه، مزدوج الاتجاه ومتعدد الإتجاه) بالإضافة الي النوويات والشظايا المهذبة (مكاشط مسننة، محاكات ومثاقب) شكلت من مادتي الجير والصوان. بالإضافة إلى شظايا طبيعية ناتجة عن عملية التشذيب، مما يؤكد وحسب الباحث سحنوني الذي قام بدراسة الأدوات على أن عملية تصنيع الأدوات كانت قد تمت في داخل الموقع. (Sahnouni M.et de Heinzelin J.1998)

2-موقع الرايح بمستغانم:

يقع في المنطقة الساحلية الغربية للجزائر. تم اكتشافه سنة 1996، وبدأ التنقيب فيه منذ 2001 من قبل الأستاذ دراجي وفرقته المتعددة التخصصات. التي توصلت بفضل الخرجات الاستكشافية وأعمال البحث التي تقوم بها في الجزء الغربي من الجزائر ولاسيما في منطقة مستغانم إلى اكتشاف ما يقارب 30 موقع أثري التي تنتمي إلى العصر الحجري القديم الأسفل، وبالضبط إلى الحضارة الأشولية، وهذا عكس ما كان يشاع خلال الأبحاث القديمة. كما أدت عمليات التنقيب في الموقع الي التعرف أكثر علي الأقوام التي سكنت هذا الجزء من الوطن (Sahnouni M. Et Derradji A .2007).

وبدا بتحديد المستوى الحضاري الدى ينتمي اليه الموقع والذي هو الأشولي المتطور. أما فيما يخص ستراتيغرافية الموقع فهو يتضمن مستويين هما: المستوى السفلي ويتكون من طبقة محصبه (caillouteuses) يصل حجمها إلى 30سم ومستوى علوي مشكل من طبقة رملية. أما فيما يخص الجانب الثقافي فلقد تضمنت طبقات الموقع صناعة حجرية متنوعة من حيث التكنولوجيا وتتمثل بشكل خاص في وفرة الأدوات الكبيرة المشكلة على الحصى المشذب بأنواعه الثلاثة وأدوات من نوع ذو الوجهين (Bifaces) المتعدد الأشكال والفؤوس الحجرية (Hachereaux) بالإضافة إلى أدوات مشكلة على شظايا قرصية الشكل وأسطوانية وأخرى لوفلوازية (المكاشط المسننات). بعضها مشكل من مادة الكوارتزيت والبعض الآخر من الحث والحجر الرملي، والقليل منها من حجر الصوان. وهي كلها مواد محلية (Autochtone)، (Derradji A.2003).

الخاتمة:

وفي الختام نقول أن علم ما قبل التاريخ في المغرب عموما وفي الجزائر خصوصا، قادر على مسايرة الأبحاث العالمية، كما أنه قادر على تقديم الإجابات على العديد من الأسئلة التي تخص حياة المجتمعات الأولي التي عمرت إفريقيا، ومدى تأقلمها مع محيطها. وذلك بفضل غنى المنطقة بالمواقع الهامة التي تنتمي إلى مختلف عصور ما قبل التاريخ، والتي تحتوي بداخل طبقاتها كنوز من المعلومات الخاصة بسلوكيات وتصرفات أقوام هذه المرحلة، ووجود باحثين أكفاء ومتحمسين لإعادة نشر الأبحاث الميدانية المتعددة التخصصات، وادراج البحوث المغاربية في البحث العالمي.

هوامش البحث:

-Aramboug (C),1949-sur la présence dans le Villafranchien d'Algérie, de vestiges éventuels d'industrie humaines. C.R. Acad. Sci Paris, T.229, pp 66-67.
-Aramboug (C), 1953-Nouvelles observations sur le Gisement d'Ain Hanech , près de St Arnaud (Constantine). C.R. Acad Sci Paris,236 : 2419,2420.
-Aramboug (C), 1954-1956-Les Fouilles du Gisement de Ternifine de l'Atlanthropus. In : Congres Préhistorique de France, PP 171/177
-Aramboug (C), 1970- Les vertébrés du pléistocène de l'Afrique du nord. Archives du Museum National Histoire Naturelle, 10 : 1-126.
-Balout (L), Prehistoire de l'Afrique du Nord. Essai de Chronologie, Edition AMG, Paris 534P.
-Balout (L), Biberson (P),Tixier (J) .1967 :l'Acheuleen de Ternifine.L'Anthropologie,71 :217-237.
-Biberson (P), 1961- Le Paléolithique inferieur du Maroc Atlantique. Publication du service des Antiquités du Maroc, Fasc.17, Rabat, 544 p.
-Derradji (A) 2003, Le Paléolithique de la Région de Mostaganem, Dossier de l'Archéologie, 282 : 10/15P.
-Hadjouis (Dj) et Sahnouni (M) 2006-Palorovis Howelli nov.sp.(Mammalia,artiodactylà)a new bovine from the Lower Pleistocensiteof Ain Hanech (El-Kherba locus),Northeastern Algeria.Geobios,39(5) :673-678.
-Jodot(P),1955-les subdivisions du pliocène dans le nord de l'Afrique (Algérie, Maroc), d'après les unes de mollusques continentaux, Edit. Service Géologique du Maroc, rabat,114P.
-Lepot M.,1993. Approche techno-fonctionnelle de l'outillage mousterien. Essai de classification des parties actives en termes d'efficacité technique. Application à la couche M2e sagittale du Grand Abri de la Ferrassie (fouille H. Delporte) Mémoire de maitrise UNIVERSITE DE Paris x, NANTERRE.159 P.
-Le roi-gourhan(A),1964-Le geste et la parole.Technique et langage.Edition Albin Michel.
-Raffo(Drp)1935- Découvertes préhistorique dans le département d'Alger, bull. SC. Prehist. Fr, 200T.32, PP.346-348.
-Ramendi (L) 1963- les galets aménagés de Reggan (Sahara) Libyca .11 PP43-73.
-Reygasse (M), les âges de la pierre dans l'Afrique du nord(Algérie) histoire et historien de l'Algérie, pp37-70.

-Sahnouni (M) 1985- reconnaissance d'une chaine opératoire expliquant l'obtention des formes polyédrique et sub-sphérique dans l'industrie sur galets du gisement villafranchien de Ain Hanech (Sétif Algérie orientale, CRAS, Paris, T.301, série il n° PP 355-358.

-Sahnouni(M) et Hadjouis (D), 1987- découvert de nouveaux documents osseux et lithiques à Ain Hanech (Sétif, Algérie orientale) Bull.
Soc prehist, fr, T.84 pp133-134.

-Sahnouni (M), 1993-etude comparative des galet Taillés polyédriques sub sphérique et sphériques des gisements d'Ain hanech (Algérie orientale) et d'Olduvai (Tanzanie), l'anthropologie, T.97 n°1 PP 51-68.

-Sahnouni M. et de Heinzelin j.1998.The site of Ain Hanech revised : New Investigation at this Lower Pleistocene site in Northen Algeria.Journal of Archaeological Sciences,25 :1083-1101.

-Sahnouni (M), de Heinzelin (J)., Brown (F)., Saoudi (Y)., 1996. Récentes recherches dans le Gisement Oldowayen d'Ain Hanech, Algérie.C.R. Acad. Sci. Paris, 323 :63-644.

-Sahnouni (M), Hadjouis (D)., Van Der Made (J)., Derradji (AEK).Canals A., Medig (M)., Belahrech (H)., Harichane (Z)., Rabhi (M)., 2004. On the earliest human occupation in North Africa ; a response to Geraads et al..Journal of Human Evolution ,46 (6) :763/775.

-Sahnouni M.et Derradji A.2007 The lower lithic of the Maghreb :Current state of knowledge,in : Adymatu,A Semi-Annual Archaeological Refereed Journal on theArab world,15.

-Vaufrey(R),1953- l'âge de la pierre en Afrique. Jour de la soc. des africanistes, T.23, pp 104/116.

-Vaufrey(R),1955- préhistoire de l'Afrique, T.1. publ de l'Institut des hautes études de Tunis,458p.